# عـود على
# أقنعة الحقيقة وأقنعة الخيـال

جـبرا ابـراهـيم جـبرا

حقيقة لا مراء فيها ، هي ان الفنان قائد الذوق بين الناس . قد لا يستجيب الناس الى الفنان بسرعة ، بل قد لا يستجيبون له طيلة حياته ، ولكنه رغم ذلك يبقى قائد الذوق ، ومغيره ، ومجدد الرؤيا بين الناس في كل مجتمع .

والفنان ، لذلك ، يحيي على نفسه ان هو انصاع طويلا لذوق الناس — حتى وان يكن قد ساهم مع غيره في ايجاد هذا الذوق . اذا استمر الفنان في انتاج ما يتصور انه يروق للناس ، فقد تخلى عن حقه في الريادة الذهنية والنفسية ، لانه سيجد بعد قليل ان الناس قد تخلوا عنه ، فيحاول استرضاءهم . اي ان الفنان ، ازاء الجمهور ، في خطر دائم من التمويه على نفسه وعدم الاخلاص لابداعه الصارم . لان الجمهور ميال الى الملل السريع ، الى البحث عن اثارة متجددة . ولا سيما في عصرنا الراهن ، حيث تيسر المجلات الملونة اطلاع الناس على كل اتجاه فني ، وكل نزوة فنية ، في العالم كله .

فالفنان اذاً مجابه بجمهور ليس من السهل ارضاؤه — وبخاصة اذا كان جمهورا مثقفا ، وهو الذي يهمنا في مجال الابداع — كما انه مجابه بالضرورة الذاتية التي تطالبه بالاخلاص لنفسه واصالته . وبين هذين الطرفين لن يستطيع البقاء من دون ان يتمزق ، الا اذا اثبت دائما ان خياله ليس في سبات ، وان تحفزه الاسلوبي ما زال قادرا على الاتيان بالسحر والاثارة والدهشة والاقلاق . ان عليه ان يتساءل : « هل في ما انتج كشف جديد ؟ اما انني اكرر نفسي ؟ » وفي الوقت نفسه : « هل انني انتج ما اريد انا فعلا ان انتج ؟»

هنا نأتي الى ما نسميه هذه الايام بالازمة . « الازمة » في الواقع من الكلمات التي يطيب للفنان والناقد معا تكرارها ، كلما جوبه احدهما بمشكلة تعبيرية او اجتماعية . لعل فيها ضربا من التغطية الذهنية اكثر مما فيها من تحديد للمشكلة نفسها . فالازمة هي الضيق بعد الفرج ، والمفروض فيها انها طارئة على حالة سابقة من الانبساط والرفاه الذهني اوالنفسي . فاذا قلنا ان هناك ازمة يعانيها الفن في الوقت الحاضر ، بدا لنا كأنما الطبيعي هو ان يتمتع الفن بالرفاه والبحبوحة ، ولكنه يتعرض احيانا للطوارىء المنغصة . الا ان ازمة الفنان ليست بالامر الطارىء على هذا النحو . انها تكاد تكون من لوازم ابداعه . ويكاد يكون من طبيعة الخلق ان يعاني الفنان توترا وقلقا وشدة : فيكون حينئذ في حالة من الوعي الحاد بموقفه الوسط المشدود بين متطلبات الجمهور من ناحية ومتطلبات ذهنه من ناحية اخرى

والفنان الذي لا يحس هذا التوتر وهذه الشدة ، لن ينتج ، على الارجح ، ما يستحق التأمل والبقاء . فالابداع منذ ان غدا شخصيا وتعبيريا ، لا صنعة وتزويقا ، لم يكن يوما في بحبوحة نفسية او ذهنية . النتاج الفني هو تفريغ الشحنة الهائلة التي يوجدها السالب والموجب عند التقائهما : انه انفراج الازمة — الى حين . فالفنان يجب ان يبقى في قلب المعاناة ، عند ملتقى الاطراف المتناقضة ، ليبقى خلاقا . وهذا جزء من مأساته . ولكنه ايضا جزء من نشوته المتكررة التي لا اظن ان ثمة في الحياة نشوة تضاهيها ، مما يجعل حياته ( حتى ولو خلت من « الاحداث » ) اغنى واحفل من حياة البقية من الناس . فالفنان في عبور مستمر للتوترات وتغلب متجدد — وان يكن تغلبا غير تام — على نزوات القلق . ومن العبث لديه مطالبة الحياة بغير ذلك .

متى اذاً يخفق الفنان في مسعاه ؟

انه يخفق حين يعجز عن عبور التوتر على غراره الخاص ، حين يلجأ الى المهألأة ، حين يستمر في العمل ارضاء لما يظن انه اصبح سائدا بين الناس . في مثل هذه الحالة ، تكون « الازمة » قد قضت على الفنان ، بان تجره الى الطرف « الآخر » وتطيح به هناك .

وهذه ظاهرة نراها في بعض الفنانين ممن جعلوا يقاربون الخمسين من عمرهم. لقد ارعبهم سيل « التجديد » في الاساليب لدى الشباب الذين لم يبلغوا بعد حد الازمة الخلاقة الحقيقية ، والذين قد يستجيب لهم الجمهور لانهم مع « الموضة » ، دون ان يكونوا قد ساهموا بعد في توجيه الذوق الذي حققه فنانون آخرون في اقطار اخرى. ازاء هؤلاء الشباب ، قد يخطىء الفنانون الاكبر منهم سنا فهم دورهم القيادي الحقيقي ؛ وبدلا من ان ينتهي التوتر لديهم الى اطلاق شحنة الابداع المتجددة ، قد نراهم يحاولون مواكبة الوافدين الجدد ، استرضاء الجمهور ، واذا هم بالتالي يتساقطون كالجرحى في الطريق . لقد وقعوا ضحية الازمة .

اما الذين يقارعون الازمة على غرارهم الخاص ، الذي هو البرق المتكرر في حياتهم الفنية المشحونة ، فهم الخلاقون الحقيقيون . هم المغيرون الحقيقيون للذوق ، والمجددون الدائمون لرؤيا الانسان .

---

كلما تمعنت في قصائد السياب الاخيرة ، اذ كان يرسلها الي تترى من فراش مرضه ببصرة ، شعرت ان شاعرنا الجديد ، مهما اشتدت به المأساة ، انما هو شاعر الحياة . احسه بالحياة يفيض من قصائده الى قرائه ، حافزا اياهم على الاستزادة من النبض العنيف تجاه الموت . لن يستطيع الشاعر ان يتجاهل الموت كموضوع ، والشاعر الكبير ، بوجه خاص ، يتصف بحمل عواطف النقيضين ، الحب والكره ، للموت . غير انه لا يتخاذل ازاءه . فهو اكبر واصلب وارحب منه . للشاعر المعاصر ما يبرر افكاره السوداء ، ولكن

شعره يهضمها ويحيلها الى قوة ودفع ، فتصبح في آخر المطاف خسارة للموت وسخرية منه. اقول هذا وانا احس بان شعري مليء بسود الافكار ، كأنما الحلكة النفسية قد فرضت على الشاعر . وانا لن آخذ هذه الحلكة على اي شاعر ، لانها كثيرا ما تكون ذلك الظلام المشحون الذي يتفجر فجأة عن فيض من النور والرؤيا. وما هذه الا احدى الصلات الخفية القائمة بين الشعر العظيم والمأساة التي ما نهايتها الا تطهير النفس واعادة الصحة اليها .

---

ايام كنا صغارا ـ قبل الحرب العالمية الثانية ، وحتى في اوائل الاربعينات ـ كان الشعر لنا غناء وطربا . كنا نتصارع بابيات الشعر من خلال الريح ومن بين الاشجار ومن على القمم. كان الشعر ، ذلك الضرب من الشعر الرقيق الطروب ، ممكنا يومئذ . فالشعر صنو البراءة . انه صنو تجربة الفردوس ، لا تجربة الجحيم . اما في الجحيم ( ولعلني هنا اتحدث كفلسطيني عرف النكبة ) ، فالشعر صرير اسنان وصراخ اليم . الجحيم فلاة منبسطة يمشي المرء فيها الى ما لا نهاية دون ان يرى شيئا ، لا شجرة ولا طيرا . غربان تسف وتحلق وتختفي ـ احيانا . والسير وعر ومستمر . والشعر صرير اسنان وقرح في القدمين . والمصيبة هي ان غير الشعر لا يستحق الكتابة . فحتى النثر ، اذا لم يكن محملا بالمنطويات الشعرية ، فهو ثرثرة باطلة .

وهكذا بلغنا نقطة ما عدنا نستمرىء عندها الكلام الموشى سطحا، الفارغ قلبا . وفي هذا بلغنا مرحلة تشبه مرحلة الذوق التي بلغتها اوربا في العشرينات الاولى من هذا القرن.

---

في دخيلة كل خلاق صراخ صامت. ليتني استطيع التعبير عن هذا الصراخ. انها مأساة الفنان ( ولعلها سر قوته ايضا ) هذه الاصوات الهوجاء التي تعصف في صدره ، في شرايينه ، ولا يستطيع ان يسمعها الآذان الا بعشر معشارها . من اين تجيء ، الى اين تنطلق ، من وما الذي تستهدفه ، سوى اللهم ذلك المبهم المستحيل الرائع الرهيب الذي يتعدى الحب والحقد ولهاث التجربة التي تسطع كالرؤيا فجأة ثم تختفي ؟

في الحب المجنون بعض السر : في الحب الذي يعبث بالمنطق وحقائق العيش وروادع النفس . صراخ يبعث الشعر والموسيقى ، ولا يكف . جون كيتس يخاطب بلبلا في ظلام الغاب ، والمتنبي يتحدث عن الحمام الورق في شعب بوان . انها رحلة الفنان في الغاب ، في شعب بوان . ولكنها ايضا صرخة في قاعة كبيرة مهجورة ، زرعت ارضها بعيون العشاق والموتى . لعل الصراخ غير انساني تماما ولا الهي تماما ، او لعله انساني والهي معا ، ولكن معرفة الجواب لن تكون استجابة للصراخ . على الفنان ان يحمل صراخه بين جنبيه ، ويبحث في واديه المعقود آجاما . ولن يخرج من الوادي الا لحظات ، يبلغ بها هاوية يرتد

عنها . او ان الهاوية تغريه بالسقوط والنهاية . ولكنه يرتد عنها ، عودة الى الاصوات التي لن يسمعها احد غيره ، الى العشق المضطرم ، المجنون ، لعله يخلق ، لعله يمسك بشيء منه في شبكة من الفاظه ، او تهاويله .

---

يقول ت. س. اليوت :

« من السخف ان يقال ان النقد هو من اجل « الخلق » ، او ان الخلق هو من اجل النقد. ومن السخف كذلك ان نزعم ان ثمة عصورا للنقد وعصورا للخلق ، كأننا اذا القينا بانفسنا في ظلام فكري زاد املنا في العثور على الضياء الروحي . فكلا الاتجاهين في الحساسية يتكامل مع الآخر . ولما كانت الحساسية امرا نادرا ، غير شعبي ، ومرغوبا فيه ، حق لنا ان نتوقع ان يكون الناقد والفنان الخلاق في كثير من الاحيان الشخص نفسه ».

هذا الذي يرجوه او يتوقعه اليوت نراه في الآداب الغربية بكثرة . فالكثير من اعلام النقد في الادب الانكليزي مثلا هم من اعلام الشعر والنثر ايضا . فشيكسبير يعبر عن رأيه في الفن ، والشعر ، والمسرح في « هاملت » ببراعة توازي براعته الشعرية ؛ وفيليب سدني ، صاحب « الدفاع عن الشعر » ، شاعر اليزابيثي مبرز ؛ والكسندر بوب من اعظم شعراء القرن الثامن عشر ، وما زالت مقالته الشعرية « في النقد » معلما من معالم النقد . جون كيتس ملأ رسائله آراء في النقد ، كل منها ، على ايجازه وسرعة كتابته ، درة صغيرة . ودراسة شلي في « الدفاع عن الشعر » تدل على حصافة وعمق وافلاطونية قد لا يتوقعها المرء من شاعر غنائي مثله ؛ وهكذا قل في كولريدج الذي جمع بين الشعر والنقد والفلسفة طيلة حياته ؛ وماثيو آرنولد ، وازرا باوند ، واليوت بالذات ، امثال ظاهرة على الجمع بين النقد والشعر ـ وانا لم اذكر الا المبرزين جدا . والادب الفرنسي بالطبع مليء بامثلة مشابهة ، من بودلير الى جان بول سارتر في السنين المائة الاخيرة .

اذاً ثمة صلة حقيقية بين الابداع والنقد في آداب الغرب ، لا بد انها موجودة في ادبنا ايضا . غير ان قدامى النقاد في الادب العربي لم يكونوا من الشعراء ، كما اننا لا نعرف عن قدامى شعرائنا انهم خلفوا لنا نقدا ( الا ما نستشفه من قصائدهم ) . وهذا امر حري بالدراسة . ولكن ادبنا المعاصر ، لكثرة ما فيه من تجريب وبحث اسلوبي ، اخذ يتصف بهذه الظاهرة الغربية ، وجعلنا نرى من الشعراء والقصاصين من ينصرف الى النقد ايضا انصرافا جادا . اديبنا اليوم مضطر الى الخلق من ناحية ، والى الدفاع عما يخلق من ناحية اخرى ـ ولن يسعفه « النقاد » الاكاديميون الا فيما ندر ، لانهم على الاكثر متخلفون عن ابنائه او غير متعاطفين مع محاولاته . وهكذا اصبحت حاجة المبدع الى تبرير عمله فضيلة فكرية ، ينتعش بها الادب .

ولكن ، يجب الا نسرف في التفاؤل . فالناقد الجيد ما زال نادرا جدا . وما زالت محاولات الخلق اهم من محاولات التحديد والتقييم والغربلة . واذا وجدنا ناقدا منقطعا الى النقد دون كتابة الشعر او القصة ، فلنا ان نهنىء انفسنا عليه . فلعله يجعل من النقد ما يجب ان يكون دائما عن حق : عملية خلاقة .

---

ليس عجيبا ان يجعل شاعرنا القديم من الحب مستهلا لكل قصيدة ينظمها تقريبا . كأن الحب هو العاطفة العنيفة الواحدة التي مهما حركت منه الجوائش والنوازع تظل في منأى عن التحقيق جسديا فتبقى في الاوج من قوتها . او لعله لم يكن دائما يريد ان يحقق ذلك « الوصل » الذي يتحرق اليه . واذا تحقق الوصل ، فلبرهة وجيزة لكي يكون تحفيزا جديدا لمستحيل جديد : والمستحيل هو الذي يجتذب الشاعر ويستثيره بسحره وبعده . والمستحيل هو الذي يجعل الدوارس دروبا الى اللذة النفسية الجارحة التي تبكيه وتدر عليه اللفظ الجميل ، والصور العزيزة . فالشاعر موزع بين التراب والهواء ، ولن يستطيع العيش في التراب وحده . وكلما تحرك شيطانه ، اراد الهواء ، اراد ذلك الفضاء الذي يملؤه الحب بالرؤى ، تراها العين وتعجز عنها اليد . وشهوة العين في الشاعر توازي شهوة البصيرة ، والخلق هو في اندماج الشهوتين . واذا ما بدأت عملية الخلق كان له فيما بعد ان يسيرها انى يشاء : الى الفخر ، الى المديح ، الى الرثاء ، الى الهجاء . فالشاعر فارس ادار ظهره الى القلعة ، لكي يبقي على شهوة متقدة لمن فيها . كان عليه ان يعاني الفراق لكي يدمى قلبه وتستنزف مآقيه ، فتأتيه الكلمات . ولكأني به لا يرى الجمال الحقيقي ولا يستشعره لحد النشوة الا اذا استوحد واستوحش . الرؤية الفعلية تضلله عن اسرار الفتنة ولن يستطيع تلمسها الا بالبصيرة ، الا تذكرا ، وتوقا ، لانها حينئذ تتكشف عن نفسها بالكنايات والتشابيه . تتكشف ، ثم تتمنع من جديد ، ثم تتكشف ، وهكذا يستمر الخلق الشعري .

في عصر يتم التحقيق الجسدي فيه بسهولة ، تفقد فكرة « الوصل » فعلها ـ او تهجع طاقتها الخلاقة ، فيبحث الشاعر عن وسيلة اخرى غير الحب لايقاظها . بماذا ؟ ربما بالموسيقى ، ربما بالمخدرات . ربما بالسكر . ربما بالمغامرة على شفا الانتحار . ربما بذلك الشعر نفسه الذي اوجده الحب المستحيل فيما مضى .

---

لا احسب ان ثمة كاتبا الا ويمر في ازمة هي ازمة « لفظية » ، ازمة الكلمات . ففي اول عهده يرى الكلمات شابة نقية لم تتهرأ بعد بالاستعمال ، ولكن الكاتب الحساس قد يرى بعد مر السنين ان هذه الكلمات التي هي وسيلته الاولى والاخيرة اخذت تفقد نضارتها وطاقتها ، وجعلت تتهرأ وتتهافت بين يديه . اغلب الظن ان النضج يفوق احيانا مقدرة

المرء اللفظية ، الا اذا استطاع بالفعل ان ينمي الطاقة اللفظية مع نموه وتفكيره وتعبيره. هل بدأنا نشك في ان الفاظنا اصابها الوهن ، في حين ان تجربتنا اشتدت تأججا وعنفا ، وكانت النتيجة قطيعة بين الاثنتين ؟ ربما .

ونتيجة لذلك ، اذا استطاع المرء الاستمرار باستعمال هذه الالفاظ ، رغم ما حاق بها على يديه ، فانه قد يجد انهااصبحت اوضح وابسط مما يقبل ويرضى به . الغريب ان الانسان كلما كبر ، استهجن التعقيد والغموض والابهام ، وتوخى الوضوح والمباشرة ، واحيانا البساطة . ولكن رغم ذلك فان الوضوح والمباشرة والبساطة تختلف لديه عما كان يتوخاه منها في كتاباته الباكرة . فتصبح هذه ( اي الوضوح والمباشرة والبساطة )وسيلة لنوع من التركيز والتضمين والرمز . واذا بها تحقق ما يبدو عسيرا على الفهم لدى الغير وبعيدا عن البساطة والمباشرة المتوخاة اصلا . وبعبارة اخرى ، يقع الكاتب ضحية التناقض بين شيئين يتوخاهما في نفس الوقت . واذا عجز عن حل هذا التناقض ، فلعله يرفض ان يكتب بالمرة . وانا اعتقد ان اللامعقول الذي جعلنا نراه في بعض الكتابات، ومحاولات « الرواية الجديدة » ،كلاهما ضرب منالسعي نحو هذا التناقض وازالته . فكأنما الادب نفسه قد كبر ونضج ، بحيث ما عاد يأبه لاشكال الادب التقليدية التي تبدو اشبه بكتابات الذين لم يتم نضجهم حضاريا . ولهذا ايضا قد يلجأ الكاتب الى نوع من الشعر الجديد الذي يحقق له في اسطر قليلة ما كان يحتاج الى فصول في كتاباته السابقة .

---

يقولون : اذا عرف السبب بطل العجب .

ولكن اذا بطل فينا العجب ( والعجيب قوة يقظة دافعة ) ، فقدنا القدرة على الانتباه الى ما في اشكال الكينونة الممكنة من رهبة ، او غموض ، او فتنة . فالعجب هو ابداعتنا الاولى .

واذا تبلد فينا حس العجب ، تبلدت فينا الرغبة في الفهم واستدرار روعة الحياة .

والخلاق هو الذي يبعدنا عن مثل هذا الخطر ، بتنشيط حس العجب — وبالتالي تجديد حس الحياة .

فالتكرار واللف والدوران حول ما قد تحقق ، دون النزوع الى التجديد المستمر ، انما تغيم مجال الرؤية وتقصر مداها ، وتأتينا بما هو اشبه بتراب قد لا يمنع عنا الحركة ، ولكنه يمنع نفاذ البصر والتنفس الحر الطيب .

والمجدد الخلاق يجلو هذا التراب : اساليبه تأتي كالمطر على شوائب الجو ، فتعيد الينا الشفافية ، والرؤية ، والاستجابة المنعشة لحسن الكون ، وحرارة التجربة . انها تجدد قدرتنا على العجب .

والعجب يدفعنا الى البحث عن الاسباب .

ولا بد ان في الاسباب دائما ما سيدفعنا الى المزيد من العجب. فالبراءة ، في نهاية الامر ، هي صنو الخلق الفني ، ومن ضاعت براءته ضاعت موهبته .

---

يتحدثون عن الغموض في الشعر الحديث ، كأنهم يعطونك قرشا لتعطيهم قدرا من المعنى يتحلون به ، فيغضبون اذا وجدوا ان ما اشتروه لا يذوب في افواههم عن حلاوة . انا لا افهم كلامهم عن الغموض .

فالحقيقة هي أن المطعن الاكبر في الشعر الحديث ليس غموضه. انه هذا الوضوح الصريح ، هذا الاطناب في النص واقامة البديهية على البديهية واستنفار المبتذل بعد المبتذل. اذا استثنينا اربعة او خمسة من شعرائنا اليوم ، فان معظم الآخرين ينهجون الطريق الى الوضوح العقيم يوما بعد يوم ، ديوانا بعد ديوان ، فرحين بانفسهم . ولن يعدم اكثرهم « نقادا » يرون في هذا الركام من موات الخيال معاني ثورية ومضامين وجودية وقضايا تعج بمعطيات الحياة ، الى آخر ما هنالك من كلشيهات النقد التي سئمناها والتي يمكن اغداقها على اية قصيدة ، مهما تكن ، اذا كان الناقد راضيا عن صاحبها ، دون ان يخسر او يكسب شيئا احد. وهكذا ينافس « النقاد » منقوديهم في وفرة الهذر — وتبتلع الشعر دوامات التفاهة الفكرية .

والضعف الآخر في الشعر الحديث ، هو هذا الطول الذي لا يبرر في كثير من القصائد. ما اخطر القصيدة الطويلة على صاحبها. ازاءها لسوف تتساءل: هل لدى الشاعر من الصور والمعاني التي لم يسبقه اليها احد ما يكفي لطولها ؟ اذا لم تكن كل قصيدة مغامرة جديدة في عالم من الصور والمعاني يكتشفها الشاعر لنا لاول مرة ، اذا لم تكن القصيدة مغامرة بكرا لم تعرف الا شاعرنا ، فمن العبث وضياع الوقت الوقوف عندها . فاذا كانت القصيدة ايضا طويلة ، اشتدت مطالبتنا بالمغامرة البارعة . فليرأف الشاعر بنفسه وبنا . اذا ما عاد من الغوص ( ان كان ثمة غوص ) ، فاننا لن نرضى له بان يرمي في وجوهنا بكل ما جمع من اصداف ، وان تكن براقة . لان معظمها فارغ ، كما سيخبره غواصو الخليج .

فاذا كان لا بد للقصيدة من طول ، فعليها ان تكون منظومة كالعقد الثمين : كل لؤلؤة فيه حقيقية ، جاءت من اعماق المخيلة . اما عقود الخرز ، فليعطها اصحابها للذين يخشون الغموض ، ويرون في كل زجاجة ملونة معاني ملهمة .

الغموض ؟ اهلا به ، اذا كان في جمال اللآلىء — وغموضها .

---

ثمة تيارات جديدة في الفكر العربي ، تيارات عنيفة متضاربة تحمل جيلنا في كل اتجاه ، ترفعه وتخفضه ، تدفعه في شتى دروب الفكر والمحاولة ، وترغمه على التأمل من جديد في

ذاته وظروفه ومجتمعه . لو لم تكن هناك تيارات جديدة ، لما كان العالم العربي على ما هو عليه من غليان ، واضطراب ، وتطلع ، ونزق ، وثورة . ومن العبث ، ونكران الواقع ، ان ندعي انها تيارات اجنبية مترجمة الى العربية ، مهما كان للفكر الاجنبي من اثر فيها . يكفي ان تتلبس التيارات الفكرية الخارجية لبوس اللغة العربية لتضحي بعد مدة جزءا منا ، لتفاعلها بتراثنا وعاداتنا الفكرية ، بسكونيتنا وديناميتنا معا . القليلون منا فقط يفهمون التيارات الاجنبية على حقيقتها بحيث يصبحون جزءا منها . غير اننا نفهمها الى الحد الذي يجعلها روافد تضاف الى الروافد الاخرى الكثيرة ، التي تصب في حياتنا العقلية والنفسية . نحن اليوم ما عادت تفصلنا الصحارى عن البحار ، والبحار عن العوالم الاخرى ، وما الزعازع التي تعتور حياتنا الا الدليل على اننا بفجاءة تاريخية اصبحنا جزءا من حضارة عصرنا بعد انقطاع عن الحضارة دام عدة قرون . لن يعني ذلك اننا اهدأ بالا ، او اننا نسعى الى الطمأنينة والاستقرار والدعة عن طريق التيارات الفكرية . فالتيار يعني الحركة ، بل الحركة الجارفة ، واذا كان لنا في كل تيار شقاء كثير ، فان لنا فيه ايضا ، ولو لبعض الوقت ، سعادة المشاركة . والمشاركة هي يقظة الحس ـ بل الحواس كلها ، ويقظة الوعي . لقد القينا بانفسنا في بحر مغتلم ونحن لم نتقن السباحة بعد . ولا ريب ان بعضنا سيغرق ، ولكن بعضنا سيتعلم مقارعة الموج والتغلب عليه .

وانا لا اقول هذا لانني متفائل او متشائم بما يحدث اليوم . قد اغضب على معظمه ، قد ارفض الكثير منه ، قد اندب حالنا في بعض نواحيه . ولكن الواقع اهم من كل هذا . ونحن في وسط التفاعل من هذه التيارات المتناقضة : وفيها من التحدي ما يجب ان نثبت له ، والا انكفأنا وعدنا الى عصر جديد من الظلام .

اما كيف تتفاعل التيارات ، فليس من اليسير ان نحدد ذلك بايجاز ، سوى ان نقول انها هي نفسها نتيجة لتفاعلات عنيفة ادت اليها تجربتنا التاريخية كأمة عانت ما عانته من هجمة الذهن قرونا طوالا . فنحن في كثير من الاحيان مدفوعون الى البحث عن الفكر التي تجسد طبيعة تجربتنا من ناحية ، وتمنحنا قوة دافعة نحو تجربة جديدة من ناحية اخرى . ولما كان عدد المثقفين ما زال صغيرا بالنسبة الى مجموعنا كشعب يبلغ تعداده ثمانين مليون نسمة ، فان التيارات الفكرية ، على شتاتها ، تدفع بهذه الفئة القليلة المهمة الى الاحتكاك فيما بينها احتكاكا عنيفا ، وبذا تتسلسل التفاعلات الفكرية في اتجاه خلق حضارتنا العربية الجديدة .

---

مسكين المفكر العربي : يرفع عقيرته بالاحتجاج فتنهال عليه السباب من كل صوب (وعلى الاغلب من « المثقفين » الآخرين ) ، ثم يشهر به ، وقد تستعدى السلطة عليه ، الى ان

يأكل هواء ويسكت . واذا ما سكت ليحفظ رأسه من هوج الرياح ، انهالت عليه السباب مرة اخرى : جبان ، انتهازي ، يستغل ثقافته للوجاهة ، لا يجعل من نفسه رأس الرمح في وجه المستبدين . اذا ما استغل غيره امورا اخرى اقل شرعية بكثير من الفكر من اجل الوجاهة ، قلما تجد فارسا يتهمه بالجبن والانتهازية . اما المفكر فيتعرض دائما لمثل هذه التهم ، رغم انني لا اعرف كيف « يستغل » اي مفكر ثقافته من اجل الوجاهة او المغنم .

غير ان المفكر ، رغم ذلك ، يبقى مسؤولا تجاه نفسه وانسانيته ، كما هو مسؤول تجاه مجتمعه في كل الاحوال اذا كان له حق الطليعية الفكرية فيه ، ولا سيما اذا استبد بالمجتمع مستبد ، لانه اللسان الناطق عنه . واذا ما وجد المفكر انه عاجز عن القيام بمسؤوليته ، لانه يرفض النفاق والمهأة ، ولان وسائل الاستبداد لا تقتصر على الحظر ومنع النشر ، بل تتعدى ذلك الى تسليط « مفكرين » آخرين على المفكر لتحطيمه ، كما نرى في دول الحكم المطلق ، فانه يصمت ، والصمت اكبر اتهام للمجتمع ولمن يستبد به . الصمت هو وسيلة المفكر الاخيرة في رفع اصبع الاتهام . والمجتمع يكون ايضا مسؤولا عن مثل هذا الصمت ، لانه خذل المفكر ، خذل ذلك الذي هو في الواقع ضمير المجتمع . في المجتمع الليبرالي فقط يتسنى للمفكر ان يتكلم جهرا ، لان فيه ما يضمن له حرية الرأي وحرية القول . أما ان يرضى المجتمع بان تنتزع منه هذه الحرية ، مهما تكن حجته في ذلك ، ويطالب المفكر بما لا يطالب به نفسه ، فلغو باطل .

ولكن كلمة «مفكر» نفسها كلمة مطاطة لا يمكننا تحديد هوية صاحبها تحديدا واضحا . هل كل من كان مثقفا « مفكر » عن حق ؟ هل نستطيع القول ان اساتذتنا الجامعيين كلهم مفكرون ؟ طبعا لا . فالمثقفون الذين ما زالوا يغيرون المجتمع العربي ، ليسوا بالضرورة كلهم مفكرين بمعنى « فلاسفة » القرن الثامن عشر في فرنسا . فالمفكرون الذين هم من هذا القبيل لدينا ما زالوا قلة ضئيلة ، وما زالت الغوغائية في بلادنا اكبر مفحم لهم . المفكر الحقيقي لدينا مهدد بتهمة الزندقة حالما يرى رأيا غير الذي درجنا عليه ، او غير الذي يريده اهل السلطة المؤقتة . وهذه مأساته : انه جزء هام من مجتمع سريع التطور ولكن في المجتمع قوى صماء ما زالت تستطيع فرض الصمت عليه . فمعركة المفكر اذا ليست مع المستبدين من الحكام فحسب . انها مع المجتمع نفسه ، بكل ما فيه من انتهازية وضيق صدر ، واستعداد للبحث عن كبش ضحية .

---

ليس من السهل تفسير المؤثرات وكيفية فعلها في الاساليب والمحتويات . اما انها ليست اعتباطية ، فامر لا شك فيه . فهي دائما تأتي استجابة لحاجة ، والحاجة يخلقها المناخ

الحضاري . وقد قلت في مكان آخر ان المؤثرات كثيرا ما تبلغنا متأخرة عشرين او ثلاثين سنة ، فتحدث ما يشبه الانفجار المؤخر . فاذا صرفنا النظر عن التيارات السياسية ، وجدنا ان العالم العربي في السنين العشرين الاخيرة يمر ، ثقافيا ، بسلسلة الانفجارات السريعة التي امتازت بها الثقافة الاوربية بين ١٩١٠ و١٩٣٥ ـ من « ما بعد الانطباعيين » الى الماركسيين والواقعيين الاجتماعيين . وانا ارى ان الفترة الاوربية الواقعة بين ١٩١٠ و١٩٣٥ هي من اغنى الفترات واغزرها خلقا في تاريخ الفنون . فحتى لو جئنا بقائمة موجزة للحركات والاسماء التي ازدهرت في هذا الردح القصير من الزمن واوجدت وجهة جديدة لسير الفكر والذوق في العالم ، لكانت قائمة مدهشة . ففضلا عن تنمية السينما والمونتاج الفلمي ـ مما كان له اثر في معظم الفنون في العشرينات ـ فاذنا نجد التكعيبية ، والمستقبلية ، والدوامية ، والتعبيرية ، والسريالية ، والتجريدية ، ونجد كذلك بيكاسو ، وكندنسكي ، وبراك ، وسترافنسكي ، وفرويد ، وبريتون ، وابولينير ، وتي . اي. هيوم ، وكافكا ، وجيمز جويس ، ومارسيل بروست ، و د.ه. لورنس ، وازرا باوند ، وت. س. اليوت ـ وما هؤلاء الا القليل . هذه الفترة هي التي تجاوزت فيها فكرة الثقافة الانسانية الحدود القومية : فالروافد قد تصب في التيار القومي الكبير ، غير انها قد تأتي من افريقيا ، او اليابان ، او مصر القديمة ، او بابل : قد تأتي من المانيا او روسيا او فرنسا او الاقطار العربية ، او اي قطر آخر في العالم .

والمثقفون العرب في السنوات الاخيرة جعلوا يسيرون في مثل هذا الاتجاه بعينه ، غير انه كان عليهم ، اذ ادركوا الاتجاه متأخرين ، ان يضغطوا تجارب السنين الكثيرة في اعوام قليلة . ولذا جعلنا نرى فيضا من الاساليب المختلفة في الفن والادب يأتينا دفعة واحدة دون التعاقب الزمني الذي ظهرت فيه هذه الاساليب في الاصل .

---

فينا اكثر من هوس . في حياتنا من الضغط والدفع والجذب ما يجعلنا نقع في هذا الهوس وذاك للابقاء على الذات الحقيقية فينا ازاء هذا الهجوم المستمر على كياننا ذهنيا ، وحسيا ، وحياتيا . ولكن الهوس ـ بما في الكلمة من معنى الانحراف عن السوي ـ ليس من شيمة كل انسان ، ولا هو دائما بالخير او الشر . والاهواس تتفاوت نوعا وحدة من الفنون في الطرف الواحد الى العبقرية في الطرف الآخر . وحظنا منها اشبه بحظ الفرد من طاقة الخلق . ومنها ما هو استزادة من الحياة ومنها ما هو محق لها . والحد الفاصل بين هذه وتلك قد لا يزيد عن عرض شعرة .

والحب بكل انواعه هو الهوس الاكبر لدى الخلاقين : به يدركون لا الذات فحسب ، بل كل ما هو خارج عن الذات . فالحب ، كما تقول الروائية آيريس ميردوك ، « هو ذلك

التبين العسير من انثمة شيئا غير الذات حقيقيا » به يدرك الخلاق الافراد الآخرين والاشياء الاخرى ، اذ يوجد الحب امتدادا بين الذات وبين الافراد والاشياء الحقيقية خارجها . انه بعض الطاقة الايجابية التي بها يحاول التغلب على الضغط والدفع والجذب ، الممثلة للناحية المظلمة التي تتهدد الانسان .

وحتى تلك الموضوعية اللاعاطفية التي نراها في التركيز على الاشياء والافراد في شخص رجل كروكنتان في « الغثيان » لسارتر ، انما هي قناع من اقنعة الحب ، مهما اصيب صاحبها احيانا بالغثيان . فهذا التعلق باصغر التوافه مما يعرض له ، واحيانا باقذرها ، انما هو جسر « الحب — الهوس » . وبقدر ما يستطيع الحب احيانا تضبيب الرؤيا في الحواشي للتركيز على تفصيل يكاد يكون باهرا في مكان ما في الوسط ، هكذا يستطيع ان يوضح الحواشي والاطراف لحد انعدام المنظور والتسلسل المنطقي .

ولكن الحقد ايضا قد يكون هوسا دافعا الى ضرب من الخلق . غير انه هوس ازاء الحياة يمنع الذات عن الكشف ، عن ايجاد الصلة بين المدرِك والمدرَك . وبينما هوس الحب قد يصل الى غضب ربما بلغ احيانا حد اليأس ، كحب الانبياء الرهيب ، قد يتقنع الحقد طلبا للآخرين بوجوه الحب وينطق بالسنة مستعارة ، لينضم اخيرا الى الضغوط العمياء التي تطلب المحق ، وتفرض المزيد من الظلام .

---

رأيتني في مآدب كمأدبة افلاطون
حيث الرأي مجنّح ، واللسان لا يعقله
الا عقل ومنطق . والمشاركون
في الوليمة يبحثون بين اركان الارض الاربعة
وبين افلاك الفضاء ، لا يخشون
طغاة تسلحوا بعبارات جاهزة
يلوّحون بها فوق رؤوس المتحدثين .
في مآدب كهذه سقراط قد ينمو
او ارسطو او ابن رشد ،
ولكن رأيت الطغاة يندفعون مقعقعين
الى قاعة الجدل ، فيقلبون المائدة ،
ويغرقون الرأي الطليق في النهيق .
فيسكت الباحثون ، ويجرع سقراط السم ،
وتنتشر الغربان في السماء وفي الارض الضفادع .